فضاءات الإعلام في التراث العربي
مقاربة ابستيمولوجية

د. بوعلي نصير
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدخل:

تعيش البشرية بكاملها في طور مشتركة من أطوار تطورها ونموها يسميه بيار ثيلاردي شاردان (Pierre Thelhard de Chardin) طور التكوكب أو التكور (Planétisation)، أي أنها تشترك كأمم وجماعات في وحدة العيش المتنوع على الكرة الأرضية. وأنها بعدما بلغت تقدما بعيدا في تلازم وعيها وحريتها بحيث أن وعيها أصبح معيارا لحريتها وأضحت حريتها معيارا نوعيا لسعادتها، أصبح لزاما على هذه البشرية الكبرى المجتمعة اليوم لأول مرة في تاريخها على هذا النحو الفريد من نوعه أن تتدبر أمورها وتبتكر حضارتها في ضوء واقعها التاريخي المعاصر المنسوج كما يرى بيار ثيلاردي شاردان من فضاءين متكاملين:

الفضاء الحيوي (La Biosphère): ويقصد به المكان (Espace)، أي ما تتمكن به ماديا من التمدّد والتكون والتطور. فالمادة (Matière) هذه الأم الأرضية هي والمكان (المادة الممكنة حيويا) شيء واحد.

الفضاء الفكري (La Noosphère): وهو ما تنتجه المدنيات والحضارات البشرية المكثفة زمانيا في ثقافات وعلوم وفنون وآداب وتقنيات مشتركة بين البشر منذ أقدم الأزمنة إلى عصرنا هذا[1].

والواقع أن هذين الفضاءين المتكاملين بنيويا ووظيفيا لا يمكن الفصل بينهما إلا من باب الدراسة المنهجية. وعلى سبيل المحاولة العلمية الرامية إلى قراءة متخصصة في وجه واحد من أوجه ثقافتنا المتعددة سنحاول دراسة فضاءات الإعلام في التراث العربي بوصفه قوة نابعة من الفضاء الحيوي للمجتمع الذي نحن نتواجد فيه وأصبح الآن نسبيا منتشرا في مجالاته الفكرية والعقلية، الواعية واللاواعية، الواضحة والغامضة، المفهومة والملتبسة منطلقين في ذلك من حدود الفصل التقني بين دراسة الوجود المكاني أو الجغرافي (Etre Géographiques) لأمة كبرى كالأمة العربية الإسلامية ودراسة وجودها الزماني، المعنوي التاريخي والحضاري (Etre Civilisationnelle).

يلفت خليل أحمد خليل إلى أن الإنسان في حد ذاته ككائن حي يحتوي هذين الفضاءين المادي والفكري، إذ بالتوقف السريع عند فضائه الحيوي المادي نلاحظ أن أعضاءه المتخصصة التي سميت خطأ بالحواس الخمس (العين، الأذن، الأنف، اللسان، الجلد) والتي تقوم بالوظائف التالية: البصر، السمع، الشم، الذوق، اللمس. إذ تفوق ذلك بكثير وإلا ماذا نفعل ببقية أعضاء الإنسان المركزية الفاعلة: العقل، القلب، المخ، الخ. أي التفكر، التعقل والضمير. فالضمير عند الفرد هو الشعور والإحساس بالآخرين وبكل ما يرتبط بمجالاتهم المادية والمعنوية من عادات وتقاليد وقيم أخلاقية. فكل أعضاء الإنسان تعمل معا وتواجه كلية الفضاء المعرفي والإعلامي عموما.

إن هذه الإشارة يقصد بها هذا الباحث التنبيه إلى العلاقة الترابطية بين العالم (بكسر اللام) والمعلوم، أي بين الإنسان العارف ومواضيع معرفته، كما يقصد بها

التنبيه إلى مخاطر تجزيء الإنسان تمهيدا للتنبيه إلى مخاطر تجزيء الجماعات المدروسة والفصل بين حقلها المكاني وحقلها التاريخي والحضاري[2]. وفي معرض كلامه عن العقل يشير خليل أحمد خليل إلى البنية المكثفة للدماغ البشري واتصاله بكل الأعضاء وتعامله معها بأولويات لطيفة. فالعقل هو إحدى وظائف الإنسان الكلي وله عدة أدوار يؤديها في عدد من المجالات أبرزها الذاكرة (Mémoire) والتذكر (Mémorisation) والتفكر (Réflexion) والإدراك (Perception) وكلها تتغذى من الفضاءين الحيوي والفكري معا، بحيث أن خلايا العقل البشري توفر للمرء ذاكرة حية تجعل الزمان بكل أبعاده حاضرا في متناوله[3].

حقا أن الإنسان خلق في أحسن تقويم.. كما جاء في القرآن الكريم. ولكن كيف نظر هو لنفسه وكيف قدمه إعلامه لذاته؟ إن هذا السؤال هو بغرض العودة إلى التأمل قليلا في تاريخ تراثنا العميق الذي يمثل صورتنا غير المشوهة وإلى استرجاع رأسمالنا الرمزي وسيكون في استطاعتنا تناول ذلك من خلال المادة الإعلامية الحضارية التي تصورنا لأنفسنا كما كنا في الماضي وكما نحن عليه الآن. في هذا الإطار لا يجوز أن تغيب عن وعينا صورة الفضاء الحيوي الجغرافي الذي نتواجد عليه أو الذي تواجد عليه أسلافنا وصورة الزمان المعنوي والحضاري الذي كانوا ينتمون إليه.

الإعلام العربي قبل الإسلام:

إن الإعلام العربي قبل الإسلام كان يعتمد على المسموع المنقول شفهيا من فم إلى أذن والمسموع المنقول شفهيا والمتصل بالمنظور ميدانيا في الفضاء الجغرافي، أي أنه مرتبط بالعين التي رأت. وكلام آخر نقول أن الإعلام العربي قبل الإسلام

كان إعلاما إخباريا أكثره شفهيا وأندره مكتوبا*. فالإنسان منذ القدم حمل رسالته في الأرض وظل يتواصل مع الآخرين بمختلف الوسائل بدءا بالمشافهة طبعا أو ما يسميه اللسانيون باللافظات (Phonèmes) والفاردات (Morphèmes) أين يلتفظ الاتصال عن طريق حاستي السمع والبصر[4]. ويرى في هذا الإطار مارشال ماك لوهان (Marshal Macluhan) أن وسائل الإعلام امتدادات للبشر، امتدادات لحواس الإنسان ثم امتدادات لأعصابه وأن تأثيرها على الإنسان ينبع من أنها جزء لا يتجزأ منه وأنه لابد للإنسان من أن يعتمد على حواسه ليدرك ما يجري حوله[5]. فالرواية الشفهية التي كان مركزها حاستي السمع والبصر كانت تمثل بالنسبة إلى عرب الجاهلية أهم وسيلة اتصال لنقل معارفهم بمختلف ألوانها سواء أكانت قصصا وأمثالا أو تعلقت بأيامهم وغزواتهم وأنسابهم أم اتصلت بالعقائد والعادات التي كانت سائدة بينهم أم بالشعر الذي كان ديوانهم، أم بغير ذلك مما له علاقة بشؤون حياتهم. ولعل في الاختلاف الذي نراه في رواية بعض الأمثال وما يتصل بها من قصص في نسبة بعض الأبيات والقصائد إلى أكثر من شاعر أحيانا، خير بيان على طبيعة المسلك الذي عبره وصلنا تراث الجاهليين.

إن من يعود إلى أمهات الكتب الأدبية القديمة كطبقات فحول الشعراء والشعر والبيان والتبيين والأغاني والعقد الفرد وغيرها يمكنه أن يلاحظ من خلال عرضها أشعار الجاهليين وما يقدم بين أيدينا من أخبار، إن هذا الشعر كان يتناقل بين أهله عن طريق الرواية الشفهية حتى ليمكن القول مع شوقي ضيف: إن النهر الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفهية المتصلة بواقعها الاجتماعي والتي كانت الأداة الطيعة لنشره وشيوعه، ونجد في الشعر الجاهلي نفسه ما يعرفنا بهذه

الوسيلة التي كان يصل بواسطتها إلى أقصى الأصقاع في الجزيرة العربية[6]. يقول المسبب بن علس: فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلغلة إلى القعقاع. ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثل وسماع.

إن الإعلام الشفهي في تلك الفترة ترتب عليه من جملة ما ترتب استشهاد الشهود على صحة القول فكان فيما بعد تراث الإخباريين والرواة قبل التدوين. حيث كان ثمة حذر شديد من الأخبار ومن رواتها «كان يأتيك بالأخبار من لم تزود» أي من لم تكلفه بجمعها وروايتها وكان التنبيه إلى ضرورة معاملتها بالنقد والدراية «إذا رويتم خبرا فأعقلوه عقل دراية لا عقل رواية».

فضاء الإعلام مع مجيء الإسلام:

إن البحث في الأصول أو في البدايات الإعلامية ليس موضوعنا الأساسي في هذه الدراسة، لكن لابد لنا من النظر السريع في التحول الدلالي للإعلام الذي طرأ مع الإسلام، والذي أصبح يقرن الإعلام المسموع (الشفهي) بالمكتوب (المقروء). وأول آية نزلت في القرآن الكريم: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[7]. لقد نزلت معظم سور القرآن في مكة المكرمة إعلاما قويا إلى العقول والقلوب حتى أرسى الإسلام عقيدته في أساس بناء الإسلام. حيث احتل فعل «اقرأ» مكانته المؤثرة والمحولة في الفضاءين الحيوي والمعرفي للعرب خاصة وللمسلمين عامة، وحيث أصبح المؤذن بديلا إعلاميا لشاعر القبيلة أو للصناجة العربية وأضحى الأذان دعوة مؤقتة للاجتماع اليومي على الصلاة في خمسة مواعيد. لقد كان النبي ﷺ وصحابته هم المرجع الإعلامي المركزي (groupe de référence) للقوة الجماعية

الجديدة للإسلام والمسلمين الذين قاربوا في عصرنا هذا المليار نسمة أو أزيد ، أي ربع سكان الفضاء الجغرافي الكلي.

إن فضاءات الإعلام العربي اقترن توسعها بتوسع الكيان الجغرافي وتمدد الفضاء التاريخي للأمة المتجددة جماعيا بالإسلام الذي استجابت له ودعت إليه في آن واحد. فأصبح الإعلام، فيما بعد، معقولا من غير وجه وبغير حاسة، أي أن الفرد المسلم أصبح فاعلا إعلاميا وقابلا له. وتنوعت الرسائل، إذ أخذت الكلمات تضاف إلى الشارات والإشارات والألوان (مثل الرايات في عهد حكومة الملأ في مكة). ومع الإسلام يلحظ انقلاب نوعي في المنظومة الإعلامية العربية السابقة، إذ أخذت تتغلب وسيلة الإعلام المكتوب المرسل من النبي إلى الأمة المستجيبة إلى الدعوة والأمة الداعية إليها، ولقد أرسل النبي- كما هو معروف- إلى إمبراطور الروم وملك الفرس وحاكم مصر ونجاشي الحبشة وإلى الأمراء المنتشرين حول الجزيرة العربية صحفا* إعلامية يخبرهم فيها بهذا الدين ويدعوهم إلى توحيد الله واعتناق الإسلام. فما حدى بنجاشي الحبشة عند اقتناعه إلا أن يقول «صحفهم ذات الإله... ودينهم قويم».

إن الرسالة الإسلامية: هي من الوجهة الحيوية (الجغرافية) والمعرفية (الحضارية) مشروع إعلامي كبير. والمفارقة هنا هي أن الرسول ليس شيخ قبيلة يرسل رسائله إلى شيوخ قبائل أخرى، بل هو رسول الله الذي يرسل كلام الله إلى الناس كافة ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[8] وقوله تعالى أيضا: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[9]. وختم النبوة هنا في هذه الآية هو تقرير مباشر

بعالمية الرسالة الإسلامية، أي بعدم انحصار تطبيقها في إقليم خاص أو فضاء جغرافي ضيق، وبامتداداتها أزمانا طويلة تخلد فيها بعد العصر الذي بدأت فيه، بمعنى أنها تكون صالحة لكل جنس وكل بيئة وكل جيل، وأن عالميتها تكون على الامتدادين الأفقي والرأسي مع كل لون وفي أية بيئة ومع أية ثقافة وفي جميع العصور والأجيال، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أية دعوة. فهي لا تكون دعوة جنس تميزه فصيلة الدم أو سمة اللون أو ظاهرة اللغة، بل دعوة لا يفرق فيها بين العربي والعجمي، والرومي والحبشي ولا بين الأبيض والأسود وهي لا تكون دعوة محلية تحدها حدود جغرافية واعتبارات إقليمية[10]. وفي القرآن الكريم دلائل شتى تقر منذ الوحي بعالمية الرسالة الإسلامية ﴿**فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم**﴾[11]. وقوله تعالى: ﴿**وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين**﴾[12]، وقوله: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾[13] وجاء في سورة الأنبياء ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[14]، الخ.

إن هذه الصفة، أي العالمية، انفرد بها محمد، فكل الأنبياء من قبله محليون رسالتهم محدودة الزمان والمكان ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[15].

إن أسطورة «الثقافة العالمية» التي تتشكل اليوم باستمرار عبر وسائل الإعلام الغربية لا تتصل بعيسى الذي مهد لمحمد وبلغ تعاليم إبراهيم وبنيه. ومن ثم فهي في نظرنا منهج بشري ضيق يقوم على العنصرية الفكرية والاستعراقية

(Ethnocentrisme) والمركزية الإنسانوية (Anthropocentrisme). فنظرا إلى أن الغرب يسيطر على أجهزة الإعلام والأقمار الصناعية بنوعيها (أقمار الاتصالات والبث التلفزيوني المباشر)، فإنه أوحى إلينا بأن الثقافة الغربية (ثقافة لادينية) هي ثقافة كونية. وبالتالي فمن يريد أن يتحضر فما عليه إلا أن يكون تابعا لها فلسفة وعلما وثقافة وقيما وفنا. وفي المقابل فإن الحضارة الإسلامية، التي تستمد معالمها من القرآن الذي هو رسالة عالمية إلى جميع الأمم، تعثرت في عصر الوسيلة و لم تجد من يحملها محمل الجد، بل كما يشير عبد الرحمن عزي أن العالم الإسلامي يتميز- في أيامنا هذه- بسيادة البضائع الثقافية المستوردة من الغرب. هذه البضائع تحمل قيما دخيلة تهدف إلى تكسير البنيات الثقافية والمؤسسات الاجتماعية وعقول الأفراد والجماعات[16].

إعلام السلطة والمعارضة في العهدين الأموي والعباسي:

لقد كان الإعلام في صدر الإسلام ينمو بسرعة عبر أساليبه وتقنياته دون تبدل يذكر في الأسلوب والمضمون طيلة عهد الخلفاء الراشدين، وكان الهدف منه هو واحد نشر تعاليم الإسلام وقيمه السمحة، فإذن هو مشروع حضاري كبير للبشرية جمعاء. إلى أن ظهرت الدولة العربية بشكلها الملكي في العهدين الأموي والعباسي.

لقد تبدل مضمون الإعلام وتغيرت أشكاله خلال هذه الفترة. و لم يعد القائمون من ذوي الأمر في تلك الفترة سوى أصحاب حل وعقد، أي من القائمين بأمر السلطة والداعين لها. وأعادت الدولة الجديدة الدور للخطيب وانتقل الإعلام

من الدعوة إلى التقليد وازدوج المجال الإعلامي وتنوع بظهور تيارين متنافرين إعلام السلطة وإعلام المعارضة.

إن ظاهرة تعدد مراكز السلطة في العهدين الأموي والعباسي وتكاثر مراجع القرار بهما والرأي والحكم، تلازم هذا كله مع تنوع شديد في المنظومة الإعلامية وذلك بظهور وقائع إعلامية جديدة منها:

- واقعة التراسل [17] المنتظم بين الحاكم وولاته.

- واقعة التراسل المنتظم بين المعارض ودعاته.

- واقعة التجسس أو الاستخبار: (عند معاوية بن أبي سفيان، زياد بن معاوية، عند عمر بن عبد العزيز) مهمة الجواسيس كما وردت عند عبد الحميد الكاتب من خلال رسالته إلى ابن الخليفة (مروان بن محمد): أبو جعفر المنصور، عند المهدي، هارون الرشيد، عند المأمون، الناصر لدين الله.

- ظهور الاستطلاع بشكل واسع في أمور المسلمين.

- جمع المعلومات بغرض التجسس.

- البريد واستخدامه في أغراض الملك (الحمام).

- السجون (المصادرة).

- نظام العسس أو الشرطة النفسية.

- وقائع الإشهار بالخطب للملك.

- وقائع الإشهار بالمناشير.

- الكتابة على الجدران.

فالانقلاب الحاصل هو من مرحلة الوحي/الوعي من خلال النبي وصحابته إلى مرحلة إيهام الوعي الجماعي (أي جعل الجماعة تعتقد بالحق الإلهي للحاكم. فالحاكم أصبح يبحث عن شرعية لحكمه فلا يجدها إلا في الإعلام السلطوي المقرون طبعا بقوة السلطة ذاتها وبمجالها الحيوي والمعرفي (بل بقوة سيفها ومالها معا). وهذا بعض من مغازي المتنبي:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب.

ومن فهم الإشارة فليصنها وإلا سوف يقتل باللسان.

إذا انقلاب عميق داخل المنظومة المعرفية والإعلامية خلال تلك الفترة رغم كون الإنسان مخلوقا في أحسن تقويم.

لقد تبدل سلم القيم. انقلب بعض المسلمين في إسلامهم، وصار المطلوب منهم التسليم والانقياد ليس لخالقهم فحسب بل لمالكهم وحاكمهم أيضا.

وقد تحدث عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته عن وظيفة الإعلام خلال هذه المرحلة أو بعدها حين وزع السلطة أو الأمر (Autorité) بين رئاستين:

- الرئاسة السياسية (أو العصبية وقوة الاجتماع السياسي حول العصب القبلي).

- الرئاسة العلمية أو الفكرية.

فالإعلام إن لم يكن سياسة سلطوية مباشرة فهو مراس سياسي بوسائل مختلفة، يقول: «الأعلم هو الأقوى، والأعلم هو الأكثر معلومات سياسية، والأعلم هو الأكثر نشرا وشيوعا وتدبيرا للمعلومات وسط الرعية أو الجماعة»[18].

إن المرحلة المباشرة التي بدأت مع العهد الأموي واستمرت في خلال العهد العباسي، اتسمت بتوافق الإعلام مع سعي السلطة إلى إيهام الناس بشرعيتها. واتضح أن الإعلام كان سلطانيا منطلقه جعل الناس يعتقدون في حق الحاكم عليهم.

وإذا كانت المحاضرات السابقة ترمي إلى تناول المجال الإعلامي في هذا السياق التاريخي، فإن هذا لا يعفينا من الإشارة إلى المضمون القهري أو القمعي للأساليب الإعلامية في مرحلة الدولة العثمانية، المتبوعة بمرحلة الدولة الصليبية الممتدة بأشكال مختلفة عبر ظواهر الاستعمار الغربي.

فقد أصبح الإعلام المعاصر عموما تتوسله الفلسفات الوضعية، والمنازع الإمبراطورية ثم الحركات القومية والمذاهب السياسية (الليبرالية والشيوعية الخ). إذ أصبح الإعلام يعاد إلى مرجع فكري ويبنى بوسائله وأهدافه بناء سلطويا ويوظف في سياسة الأمير أو الداعية أو الدولة.

(1) Pierre Teilhard de Chardin, œuvre complètes, Edition du Seul, 1965, 1966, page: 17.

(2) د. خليل أحمد خليل، مجالات الإعلام العربي، مجلة دراسات عربية، العدد: 3، السنة السادسة والعشرون، فيفري 1990، ص: 3-21.

(3) د. خليل أحمد خليل، نفس المرجع السابق.

* إن معرفة الجاهليين للكتابة لم تعد مسألة خلافية بين الدارسين، لكن الأمر الذي لا يزال خلافا بين الباحثين هو درجة انتشار الكتابة بين هؤلاء الناس الذين كانت البداوة غالبة على حياتهم. فلم يكن لهم ثقافة مدونة وعلوم مسجلة و لم يتركوا سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضاري. ويرى المستشرق الفرنسي بلاشير أن التدوين في تلك الحقبة لم يشمل إلا جزءا من آثار الشعراء الحضريين.

(4) د. عزي عبد الرحمن، التكوين الإعلامي والتصورات المرجعية: دراسة حالة ميدانية، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد: 01، شتاء 1995، ص: 7- 03.

(5) محمد سيد محمد، المسؤولية الإعلامية في الإسلام، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، الطبعة الثانية، ص: 66.

(6) عبد القادر هني، التراث العربي من الرواية الشفهية إلى التدوين والتأليف، حوليات جامعة الجزائر، العدد: 6، الجزء الثاني، 1991-1992، ص: 11-72.

(7) سورة العلق: 1- 5.

* صحفا: ليس بالمعنى الرائج في عصرنا الحالي.

(8) سورة سبأ، الآية: 28.

(9) سورة الأحزاب، الآية: 04.

(10) سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990، ص: 102.

(11) سورة التكوير، الآية: 26، 27، 28.

(12) سورة القلم ، الآية 15، 25.

(13) سورة الفرقان ، الآية 1.

(14) سورة الأنبياء، الآية: 107.

(15) سورة الصف، الآية: 06.

(16) عبد الرحمن عزي، الإعلام الإسلامي، تعثر الرسالة في عصر الوسيلة، حوليات جامعة الجزائر، العدد: 4، 1989-1990.

(17) من المراسلة أي بعث الرسائل .

(18) مأخوذ عن وثيقة غير منشورة .